﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ [ص: 29]

❁ مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قبلَها:

القرآنُ الكريمُ تدبُّرٌ وتذكُّرٌ

لمّا ذكرَ في الآيةِ السّابقةِ الإيمانَ والتّقوى أحالَ في طلبِهما على كتابِه العزيز، فهو الّذي يُرشِدُ إلى مثل هذه المقاصدِ الشّريفة، وهو منبَعُ السّعادات والخيرات[1]. أو لمّا ذكرَ أنَّ خلق السّماءِ والأرض بما فيهما من أسرارٍ وأحوالٍ عجيبةٍ مُستلزمٌ لحكمةِ الخالق، وأنَّ من حكمتِه عدمَ التَّسويةِ بين المصلحينَ والمُفسدين بيَّنَ أنَّ القرآن الكريم أيضًا كالكونِ المنظورِ هدايةٌ مسطورةٌ لمَن أراد التَّدبُّرَ في أسرارِ آياتِه الدّالّةِ على حكمةِ المنزِلِ سبحانه، وموعظةٌ لمَن أرادَ التَّذكُّرَ بما يعرضُ عليه من نسيانِ يومِ الحساب والجزاءِ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُبَٰرَكٞ﴾: أصلُ (برك) يدلُّ على ثَباتِ الشَّيء[2]. والبَرْكُ: صدرُ البَعيرِ وإنِ استُعمِلَ في غيرِه، ويقالُ له: بركةٌ، وبَرَكَ البعير: ألقى بركَهُ، فاعتُبر منه معنى اللُّزوم والثَّبات. والبَرَكَةُ: ثبوتُ الخَيْرِ الإلهيِّ في الشَّيءِ. والمُبارك: ما فيه ذلك الخيرُ؛ ولمّا كان الخَيرُ الإلهيُّ يَصدرُ مِنْ حيثُ لا يُحَسُّ، وعلى وجْهٍ لا يُحصَى ولا يُحصَرُ قيلَ لكلِّ ما يُشاهَدُ منه زيادةٌ غيرُ محسوسة: هو مُبارَكٌ، وفيه بركةٌ[3]. والمقصودُ بـ(المُبارَكِ) في الآية: المُنبثَّةُ فيه البرَكةُ، وهي الخَير الكثيرُ، وكلُّ آياتِ القُرآنِ مُباركٌ فيها؛ لأنَّها إمّا مُرشِدةٌ إلى خيرٍ، وإمّا صارِفةٌ عن شرٍّ وفسادٍ[4].

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 502، والهرريّ، حدائق الروح والريحان: 24/ 373.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (برك).
(3) الراغب، المفردات: (برك).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 251.

2) ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ﴾: أصلُ (دبر) هو آخرُ الشَّيءِ وخَلْفُهُ، خِلافُ قُبُلِه، والتَّدبيرُ: النَّظَرُ في عاقِبَةِ الأمْرِ، وتَقْويمُه على ما يكونُ فيه صَلاحُ عاقِبَتِه، وأدْبارُ الأمورِ: عَواقِبُها[1]. يُقال: دَبَّرَ الأمْرَ: إذا ساسَهُ ونَظَرَ في عاقِبَتِه؛ ليقَعَ على الوَجْهِ الأكْمَلِ[2]، والتَّدَبُّرُ: التَّفكُّرُ؛ أي: تَحْصيلُ المَعْرِفَتَيْنِ لتَحْصيل مَعْرِفةٍ ثالِثَةٍ[3]. والمقصودُ به في الآية: التَّفَكُّرُ والتَّأمُّلُ الَّذي يَبْلُغُ بِهِ صاحِبُهُ مَعْرِفَةَ المُرادِ مِنَ المَعاني[4].

3) ﴿ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: أصلُ (لُبّ) يدُلُّ على لُزومٍ وثباتٍ، وعلى خُلوصٍ وجَوْدَةٍ. يُقال: ألَبَّ بالمكان، إذا أقامَ به، يُلِبُّ إلبابًا. ورجُلٌ لَبٌّ بهذا الأمرِ، إذا لازمَهُ[5]. واللُّبُّ: العَقْلُ الخالصُ من الشّوائبِ؛ وسُمّي بذلك لكونه خالصَ ما في الإنسان مِن مَعانيه، فاللُّبُّ كلُّ شيءٍ، ولُبابُه: خالِصُه وخيارُه. وقيل: هو ما زكَى من العَقل، فكلُّ لُبٍّ عقلٌ وليسَ كلُّ عقلٍ لُبًّا[6]. واللَّبيبُ: العاقلُ الفاهِمُ. والمرادُ بـ﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ هنا: أهلُ العُقولِ الزَّكيَّةِ السَّليمةِ الَّتي تخلَّصتْ من شوائبِ الهَوى، وارتقَتْ في معارجِ التَّفكيرِ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُثْني اللهُ الحقُّ ﷻ على كتابِه المجيد، ويُبيِّنُ حكمةَ إنزالِه، فيقولُ: هذا القُرآنُ أنزَلْناه إليك يا مُحمَّدُ ﷺ، وهو دائمُ الخَيرِ، غزيرُ العِلمِ، كثيرُ النَّفعِ في الدُّنيا والآخرةِ، أنزَلْناه؛ ليَتدَبَّرَ النّاسُ آياتِه، فيَتفَهَّموا ويَتتَبَّعوا ظواهِرَ ألفاظِه ويتأمَّلوها، ويُكثِروا مِن إمعانِ النَّظَرِ وإعادةِ الفِكرِ فيها؛ ليَفهَموا ما وراءَها مِن المعاني والحِكَمِ والأسرارِ،

لا شيءَ أنفعُ للقلبِ مِن قراءةِ القُرآنِ بالتَّدبُّرِ والتَّفكُّر

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (دبر).
(2) إبراهيم مصطفى، المعجم الوسيط: (دبر).
(3) الزَّبيدي، تاج العروس: (دبر).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 252.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لب).
(6) ابن سيده، المحكم، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (لب - لبب).

ولِيَتَذكَّرَ أصحابُ العُقولِ الصَّحيحةِ ما غَفَلوا عنه، فيَرتَدِعوا عن كُلِّ ضَلالةٍ، ويَهتَدوا إلى الرَّشادِ في كُلِّ أمرٍ[1]. وتحَثُّ الآية الكريمة الأمَّةَ على العِنايةِ بهذا الكتابِ العظيم والتِزامِه؛ لأنَّه إذا كان مُبارَكًا فإنَّ كُلَّ أحدٍ مِن البَشَرِ يريدُ أنْ يَنالَ بَركةَ هذا الشَّيءِ المُبارَك.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ فصلِ الآية:

فصلُ الجملتين لكمالِ الانقطاعِ بينَهُما

جاءَ قولُهُ تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ مَفصولًا عمّا قبلَهُ؛ لوجودِ كمالِ الانقطاعِ بينَهما، وهو اختلافُ الجملتينِ اختلافًا تامًّا بحيثُ لا تكونُ بينَ الجملتين مناسبةٌ في المعنى ولا ارتباطٌ، بل كلٌّ منهما مُستقِلٌّ بنفسِه[2]، إذ بعدَ الإمعانِ في تهديدِ المُشركينَ وتجهيلِهم في إعراضِهم عنِ التَّدبُّرِ بحكمةِ الجَزاءِ ويومِ الحسابِ؛ أعرضَ اللهُ عن خطابِهم، ووجّهَ الخطابَ إلى النَّبيِّ ﷺ بالثّناءِ على الكتابِ المُنزّلِ عليه[3]. وهذا الإعراضُ يشير إلى أنَّ مَن تدبّرَ آياتِ هذا الكتاب المبارك وتذكّرَ ما فيه من أحكامٍ وبراهينَ فإنّه لن ينسى يومَ الحساب لكثرةِ الدَّلائلِ الَّتي أشارَ إليها هذا الكتاب مُثبتًا لهُ.

بلاغةُ الاستئنافِ الاعتراضيِّ في الآية:

التّنويهُ بشأنِ القرآن

الجملةُ في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ من قبيلِ الاستئنافِ الاعتراضيِّ؛ وذلك لأنّ في هذا الاستئنافِ نظرًا إلى قولِهِ في أوَّلِ السّورة: ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١﴾ [ص: 1] والنّكتةُ في ذلك إعادةُ التّنويه بشأنِ القرآن، كما سيعادُ ذلك في قولِهِ تعالى: ﴿هَٰذَا ذِكۡرٞۚ﴾ [ص: 49][4].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 80، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 192، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 712.
(2) القزوينيّ، الإيضاح: 3/ 107.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 251.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 251.

سرّ إيثارِ لفظِ (الكتاب) دونَ غيرِه:

حفظُ الله لكتابِهِ في الصُّدورِ والسُّطور

أوثِرَ في قولِه تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ إطلاقُ اسمِ (الكتاب) على (القرآن)؛ للإشارةِ إلى أنّ اللّه سبحانه أنزلَهُ ليُكتَب، وأنّ الأمّةَ مأمورةٌ بكتابتِهِ، وإنْ كان نزولُهُ على الرّسولِ ﷺ لفظًا غيرَ مكتوب، ففيه إشارةٌ إلى أنّه سيُكتبُ في المصاحِف، وقد يكونُ المرادُ بـ(الكتاب) ما نزلَ من القرآنِ قبلَ هذه السّورة، وقد كتبَهُ كُتّابُ الوحيِ[1]، ويحتملُ أنّه أشارَ إلى نزولِهِ من مكانٍ كان مكتوبًا فيه؛ للدّلالةِ على أهميَّةِ ما فيه، حتى إنَّه كُتب في اللّوحِ المحفوظ، ووُضِعَ في مكانٍ مكرّمٍ؛ لينزلَ ويصيرَ كتابًا في الأرض يعتمدُهُ المؤمنون في حياتهم، ويسيرونَ على منهجِهِ وقوانينِهِ.

نكتةُ التّنكير في ﴿كِتَٰبٌ﴾:

تعظيمُ الكتاب الجامعِ لصفاتِ الكَمال

وردَ في قولِهِ تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ لفظُ ﴿كِتَٰبٌ﴾ نكرةً، والنّكتةُ التّعظيمُ، فهو كتابٌ عظيمٌ مشتملٌ على كلّ صفاتِ الكمال، ولا كتابَ يوصَفُ بالكمالِ المُطلَقِ سِواه. ولهذا إذا أُطلِقَ الكتابُ انصرفَ إلى القرآن؛ لأنّ المطلَقَ ينصرفُ إلى الفردِ الأكملِ، والأكملُ بين الكتبِ هو القرآن، لأنّه منَ اللّه تعالى بلفظِهِ ومَعناهُ[2]. ونلحظُ في التّنكيرِ الإشارةَ إلى أنَّه نوعٌ خاصٌّ بينَ الكتب، إذ تنكيرُهُ يدلُّ على عجيبِ آياته وعظيمِ مَعانيه وأدلّتِه.

الأوْجُهُ الإعرابيَّةُ في لفظِ ﴿كِتَٰبٌ﴾:

التّعليلُ بالوصفِ لثبوتِ الخبرِ للمُبتدأ

يجوزُ في قولِهِ تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ أوجهٌ من الإعراب، إذ لفظُ ﴿كِتَٰبٌ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ خبرَ مبتدإٍ محذوفٍ، والتّقديرُ: (هذا كتابٌ)، وجملةُ ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ صفةٌ. ويجوزُ أنْ يكونَ لفظُ ﴿كِتَٰبٌ﴾ مبتدأً، وقد سوّغَ الابتداءَ به وصفُهُ بجملةِ ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾، و﴿مُبَٰرَكٞ﴾ هو

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 160.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4645.

الخبر. ولك أنْ تجعلَ ما في التَّنكيرِ من معنى التَّعظيم مُسوِّغًا للابتداءِ، وتجعلَ جملةَ ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ خبرًا أوّلَ و﴿مُبَٰرَكٌ﴾ خبرًا ثانيًا أو صفةَ ﴿كِتَٰبٌ﴾ عندَ من يُجوّزُ تأخيرَ الوصفِ الصّريحِ عن غيرِ الصّريح[1]. والَّذي يترجَّحُ لدينا أنّ (كتاب) مبتدأٌ خبرُهُ ﴿مُبَٰرَكٌ﴾، وجملةَ ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ وصفٌ مُعلِّلٌ لثبوتِ البركةِ فيه؛ فيكون الوصفُ علّةً دالّةً على ثبوتِ الخبر للمبتدأ.

دلالةُ الوصف بفعلِ الإنزال مُعظّمًا:

كـلامُ العظيمِ بركةٌ

أُسنِدَ فعلُ الإنزال في قَوْله تَعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾ إلى الضَّمير (نا)، الّتي تدلّ على تعظيمِ المتكلّم سبحانه وعلوِّ قدرِه، وفيه أيضًا إدخالُ المَهابةِ في قلوب العباد، وفي ذلك إشارةٌ إلى عظمةِ القرآن الكريم بما لا يُحاطُ به، فكلام العظيم عظيمٌ[2]، فلا غرابةَ أن يكونَ النّازلُ بركةً وخيرًا عميمًا.

سرُّ إيثارِ الإنزالِ دونَ التَّنزيلِ:

الإنـزالُ يكـونُ جُملةً واحـدةً، والتّنزيلُ يكونُ مُنجَّمًا

أوثِرَ في قَولِهِ تَعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾ التّعبيرُ بلفظ (الإنزال) دون (التّنزيل)، وقَدْ ذَهَبَ بعضُ العلماءِ إلى التَّفريقِ بينَ هذين المصدرين (أنزلَ إنْزالًا، ونَزَّلَ تَنْزيلًا) مِنْ حيثُ المعنى، فقالوا: إنَّ الإنزالَ يكونُ جُملةً واحدةً، والتّنزيلَ يكونُ مُنجَّمًا[3]؛ أي: غالبًا.

دلالةُ حرفِ الجرّ (إلى):

دلالـةُ تنـوّعِ حروفِ المعاني في البيانِ القرآنيّ

يدلّ حرفُ الجرّ (إلى) في قَولِهِ تَعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾ على معنى الانتهاء، فالقرآنُ كتابُ اللّه سُبحانه نزلَ به المَلَكُ من العالَمِ العُلويِّ حتّى ينتهيَ إلى قلبِ الرّسولِ ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشُّعراء: 193 - 194]. والأكثرُ في النّظم القرآنيّ أنْ يتعدّى فعلُ الإنزالِ بالحرفِ (على)؛ لأنّه في

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 181، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 251.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 370، والشّهاب، عناية القاضي: 6/ 208.
(3) الزمخشريّ، الكشّاف: 2/ 311.

معنى الهبوط من فوق؛ كقوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [آل عمران: 3]، بمعنى: أنّ الشّيء استقرّ عند المنزّل عليه وتمكّن منه. واختيار إحدى التّعديتين تفنّنٌ في الكلام[1].

ولعلَّ اختيار (إلى) أنّه أُريد هنا تحديدُ نهايةٍ لارتباطِهِ بقضيّةِ الحكمة، الّتي يريدُ هؤلاءِ الجاحدونَ نفيَها بإنكارِ الحشر والحساب، بأنَّ ما يفعلُه المولى تعالى لا يخرجُ شيءٌ منه عن الحكمة، والمناسبُ لمعناها أنْ يستعملَ (إلى) الدّالّة على جهةِ المقصِد والانتهاء دونَ معنى الإحاطةِ والتَّمكُّن.

وجهُ وصفِ القرآن بـ﴿مُبَٰرَكٌ﴾:

وُصِفَ أو أُسنِدَ إلى (الكتاب) في قَولِهِ تَعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾ أنّه ﴿مُبَٰرَكٌ﴾، ومعنى البَرَكَة: ثبوتُ الخَيْرِ الإلهيِّ في الشَّيءِ[2]. ولا شكّ أنّ البركة أجمعَها في القرآن؛ لأنّه يورث الجنّة ويُنقذُ من النّار. وكُلُّ آياتِ القرآن مباركٌ فيها؛ لأنّها إمّا مُرشدةٌ إلى خير، وإمّا صارفةٌ عن شرٍّ وفساد، وذلك سببُ الخير في العاجِلِ والآجِلِ، ولا بركةَ أعظمُ من ذلك[3].

القرآنُ الكريم سببُ كلّ خيرٍ عاجلٍ أو آجِلٍ

معنى (اللّام) في قوله: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ﴾:

اللّامُ في قَولِهِ تَعالى: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ هي لامُ (كي)، وهي دالّةٌ على التّعليل، والمعنى: أنّ اللّه سبحانه أنزلَ القرآنَ ليتفكّرَ النّاسُ في آياتِهِ بالفِكر السّليم، فيَعرفوا ما يتبَعُ ظاهرَها من المعاني الفائقةِ، والتّأويلات اللّائقة. وفي الآية دليلٌ على أنّ اللّه سبحانَه إنّما أنزلَ القرآن للتّدبُّرِ والتّفكُّر في معانيه، لا لمجرَّد التّلاوة بدون تدبُّرٍ فيها. وكذلك ظاهرُ هذه الآية يُعطي أنّ التّرتيل أفضلُ من الهَذِّ، إذِ التّدبّرُ لا يكونُ إلّا معَ التّرتيل[4].

إنـزالُ القرآن للتّدبُّرِ والتّفكُّرِ لا لمجرَّدِ التّلاوة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 01/ 239.

(2) الراغب، المفردات: (برك).

(3) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 04/ 502، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 251.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 09/ 153، وابن عطية، المحرّر الوجيز: 04/ 503، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 24/ 373.

نكتةُ التّعبيرِ بالفعلِ (يَدّبّروا):

تـدبُّـرُ الآيـات التَّـفـكُّـرُ فيها والـتَّـأمُّـلُ في مَعانيها

عُبِّرَ في قَولِهِ تَعالى: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ بالفعل (يدَّبَّروا)، وهو من التَّدبُّرِ المشتقِّ من الدُّبُر؛ أي: الظّهرِ، فقالوا: تَدَبَّرَ إذا نظرَ في دُبُرِ الأمر؛ أي: في غائبِهِ أوْ في عاقبتِهِ، فهو من الأفعالِ الّتي اشتُقَّتْ من الأسماءِ الجامدة. وتدبُّرُ الآيات: التَّفكُّرُ فيها والتَّأمُّلُ الّذي يؤدّي إلى معرفةِ ما يتبعُ ظاهرَها من التّأويلاتِ الصَّحيحة والمعاني الحسَنة.

توجيه القراءات في ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ﴾ وبلاغتها:

إثـراءُ المعاني الدّلاليَّة بتنوّع القراءاتِ القرآنيّة

تنوّعتِ القراءة في قَولِهِ تَعالى: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾، فقرأ الجمهور ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ﴾ بياءِ الغَيبةِ وتشديدِ الدّال. وقرأ أبو جعفرٍ ﴿لِّتَدَبَّرُوٓاْ﴾ بالخطابِ مع تخفيف الدّال[1]. وأصلُ (يَدَّبَروا): يَتَدَبَّروا، فقُلِبتِ التّاء دالًّا؛ لقُربِ مَخرجَيهما؛ ليتأتّى الإدغامُ تخفيفًا، وهو صيغةُ تكلّفٍ مُشتقّةٌ من (دَبَرَ) بوزنِ (ضَرَبَ) إذا تَبِعَ، فتدبّرَه بمنزلةِ تتبّعَهُ، ومعناه: أنّه يَتعقّبُ ظواهرَ الألفاظِ؛ ليعلمَ ما يَدْبُر ظواهرَها من المعاني المكنونةِ والتّأويلاتِ اللّائقةِ. وأمّا قراءةُ أبي جعفرٍ ﴿لِّتَدَبَّرُوٓاْ﴾ فأصلُها: لِتَتَدَبَّروا، فحُذِفت إحدى التّاءينِ اختصارًا، والخطابُ للنَّبيّ ﷺ ومَن معَهُ منَ المُسلمينَ[2]. وعلى كلٍّ من القراءتينِ فإنَّ الصّيغةَ تدلُّ على أنَّ تحقُّقَ التَّدبُّرِ في معاني الآيات يحتاجُ إلى تأمّلٍ ومتابعةٍ دقيقةٍ وعنايةٍ فائقةٍ وصولًا إلى مقاصدِ النّظم ودلالاتِهِ الخفيَّةِ الكامنةِ دُبُرَ الظّاهر.

دلالةُ صيغةِ المُضارع في ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ﴾:

المُـداومـةُ على تـدبُّـرِ الـقـرآنِ الـكـريـم غـايـةُ الإنزالِ

أوثرَ في قَولِهِ تَعالى: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ استعمالُ صيغةِ المضارعِ دونَ غيرها من الصّيَغِ؛ لما تُفيدُهُ هذه الصّيغةُ من التَّجدُّدِ والمُداومة، فيجبُ أنْ يكونَ تدبّرُ القرآن الكريم والتَّأمّلُ في معانيهِ

(1) ابن الجزري، النشر: 02/ 361.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 252.

فِعلًا مُتكرّرًا مُتجدِّدًا؛ ليبلُغَ به صاحبُهُ معرفةَ المعاني الّتي أودِعَتْ فيه، بحيث كُلَّما ازدادَ المتدَبِّرُ تَدَبُّرًا انكشفتْ له معانٍ لم تكُن باديةً له بادئَ النّظَر[1].

دلالةُ التّعبيرِ بـ(الآيات) جمعًا مضافًا:

وجـوبُ تـدبُّـرِ الحُجَج، للقُرآن غيرِ ذي العِوَج

وردَ في قولِهِ تعالى: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ لفظُ (الآيات) جمعًا، وهو جمعُ (آية)، وجذرُها يدلُّ على بقاءِ الشّيءِ في مكانه شاخِصًا علامةً لشيءٍ، وفيه معنى الكثرةِ والجَسامةِ أيضًا[2]. والآيةُ: كلُّ شيءٍ ظاهرٍ مُلازمٍ لشيءٍ باطنٍ يُعرَفُ به حسّيًّا كانَ أو عقليًّا[3]. وآياتُ اللّه تعالى هي حُجَجُهُ وأدلّتُهُ على رُبوبيّتِهِ وأُلوهيّتِهِ، وما جاءتْ به رسلُه من شواهدَ على صدقِ ذلك[4]. وقد جاءتْ في النّظم مجموعةً مضافةً للدّلالةِ على كثرتِها ووَفرَتِها؛ لكونِ الإضافةِ للاستغراقِ، فكلُّ الكتاب آياتٌ تحتاجُ إلى إمعانِ نظَرٍ وإعمالِ عقلٍ؛ وتَشَخُّصُها في الآياتِ الكونيَّة ظاهرٌ، وأمّا في الآياتِ الشّرعيَّة ففيها معنى الجَسامةِ المعنويَّة، فهي لظُهورِها ووُضوحِها كالشّيءِ المُتشخِّصِ الّذي لا يَخفى.

وجهُ عطفِ (التَّذكُّر) بالواوِ:

التّذكُّرُ من آثارِ التَّدبُّرِ

عُطِفَ (التّذكّر) على (التّدبّر) في قَولِهِ تَعالى: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ بحرفِ (الواو) الدّالّ على الجمعِ والاقتران؛ لأنّه من باب عطفِ النّتيجةِ على السّببِ، فالتَّدبُّر مُفضٍ إلى التّذكُّر، والتّذكُّر من آثارِ التَّدبُّرِ[5]. كما أنَّ التَّدبُّرَ يتعرّضُ للنِّسيان بسببِ طولِ مدَّةِ المُتابعة، فكانَ عطفُ التَّذكُّر عليه مشيرًا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 252.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أيى).
(3) الرّاغب الأصفهانيّ، المفردات في غريب القرآن، ص: 101، ومحمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/ 238.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 1/ 552.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 252.

إلى أنَّ التَّدبُّرَ يحتاج إلى مراجعةٍ وكثرةِ مداومةٍ على قراءةِ آياتِ الكتاب؛ لكيلا يُنسى.

معنى (اللّام) وسرُّ تَكرارِها:

إنـزالُ القرآن العظيم للتَّدبّرِ والتَّذَكُّر

(اللّامُ) في قَولِهِ تَعالى: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ هي لامُ (كي)، وهي دالّةٌ على التّعليل، والمعنى: أنّ اللّه سبحانَه أنزلَ القرآنَ ليَتّعظَ النّاسُ وليتذكّروا ما هو موعظةٌ وموقِظٌ لهم من غَفَلاتهم، والمقصودُ من كلام الحقّ التّفكّرُ والتّذكُّر والاتّعاظُ به، لا حفظُ الألفاظ فقط، وكان الصَّحابةُ يَكتفونَ ببعضِ السّوَر القرآنيَّة، ويشتغلونَ بالعمل بها؛ فإنّ المقصودَ من القرآن العملُ به[1]. ويُلاحَظُ تكرّرُ حرفِ (اللّام) مع فعلَي (التّدبّر والتّذكّر)؛ للتّأكيدِ على كونِ كلّ واحد منهما غايةً لإنزالِ الكتابِ، وأنّ كلَّ واحدٍ منهما يستقلُّ بفائدةٍ زائدةٍ.

دلالةُ (يتذكّر) مادّةً وصيغةً:

الحـثّ على التَّذكّر وإعمالِ الذّهن في تطلُّبِه

جاءَ الفعلُ (يَتَذَكَّرَ) في الآيةِ بمعنى الاتّعاظِ؛ لأنّ العبدَ إذا تذكّرَ البرهانَ فقد يزدجرُ[2]. والتَّذكّرُ: استحضارُ الذّهنِ ما كان يَعلمُهُ، وهو بهذه الصّيغةِ لا يُطْلَقُ إلّا على ذِكرِ العَقلِ لِمَعقولاتِه؛ أي: حركتِه في معلوماتِه، فهو قريبٌ من التَّفَكُّرِ، إلّا أنَّ (التَّذَكُّرَ) لمّا كان مشتقًّا من مادّةِ الذِّكرِ الّتي هي في الأصلِ جريانُ اللَّفظِ على اللِّسان، والّتي يُعَبَّرُ بها أيضًا عن خُطورِ المعلومِ في الذِّهن بعدَ سَهْوِهِ وغَيْبَتِه عنه كان مُشعِرًا بأنّه حركةُ الذّهنِ في معلوماتٍ مُتَقَرِّرَةٍ فيه من قبلُ[3]. ومجيءُ هذا اللَّفظ بوزن (تفعّل) الدّالِّ على تكلّفِ الفعلِ فيه حثٌّ على التَّذكّر وإعمالِ الذّهن في تطلّبه، كما أنّ صيغةَ المضارع تفيدُ تجدّدَ فعلِ التَّذكّر وتكرّره؛ لاستدامةِ الهداية بالقرآنِ والانتفاعِ بمواعظه.

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 24/ 374.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (ذكر).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 89.

سرُّ اختصاصِ التَّذكُّرِ بـ﴿أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾:

التَّدَبُّر لعمومِ المُنزَل عليهم، والتَّذكُّرُ مخصوصٌ بالعُقَلاء منهم

عُبِّرَ في قَولِهِ تَعالى: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ بلفظ ﴿أُوْلُواْ﴾، وهو اسمُ جمعٍ لـ (ذو) بمعنى: صاحِب، والمعنى: ليتّعظ به أصحابُ العقولِ الخالصةِ عن شَوْبِ الوَهْم. فعمَّمَ النّظمُ القرآنيّ التَّدَبُّرَ لعموم المُنزَلِ عليهم، وخُصّ التَّذكُّرُ بالعُقَلاء؛ لأنّ التَّدبّر للفَهْم، والتَّذكُّرَ لوقوعِ الخشيةِ والإجلال[1].

نكتةُ الاكتفاءِ في الآية:

التَّصريحُ بالمتذكِّر تفسيرٌ للمتدبِّر

تتجلّى في قَولِهِ تَعالى: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ ظاهرةُ الاكتفاء، إذ ضميرُ ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ﴾ يحتملُ عمومَ المُنزَلِ فيهم الكتاب كما تقدَّم، أوِ العقلاءَ فقط، ويكونُ إسنادُ الفعلِ (يتذكّر) إلى (أولي الألباب) اكتفاءً عن وصفِ المتدبّرينَ بأنّهم أولوا الألباب، وذلك لأنّ التَّدبّر مُفْضٍ إلى التَّذكُّرِ، والتَّذَكُّرُ من آثار التَّدبُّر، فوَصْفُ فاعلِ أحدِ الفعلين مغنٍ عن وصفِ فاعلِ الفعلِ الآخَر[2]. وإنّما لم يُسنِدِ (التَّدبُّر) إلى أهل العقلِ؛ لأنَّ التَّدبُّر من خواصِّهم، لكنّه أظهرَهم في (التَّذكُّر)؛ لأنَّ مَن تدبَّر من أهل العقلِ والعلم ولم يتذكّرْ فإنَّه محرومٌ من العقل أصلًا؛ إذ لم ينفعْهُ علمُهُ ولم يكتسِبْ من عقلِهِ تذكُّرًا يُفيدُهُ.

وجهُ التّعبيرِ بلفظِ ﴿ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾:

أولواْ الألبابِ هم أصحابُ العقولِ الزّاكية

خُصّ التَّذكّرُ في قَولِهِ تَعالى: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ بـ(أولي الألباب)، وهم أصحابُ العقولِ الزّاكية الخالصةِ منَ الشّوائب[3]. وسُمّي (اللُّبُّ) بذلك لكونه خالصَ ما في الإنسانِ مِن معانيه، فاللُّبُّ من كلِّ شيءٍ: خالِصُه وخيارُه، وكذلك لُبابُه. وقيل: هو ما زَكَى من العَقل، فكلُّ لبٍّ عقلٌ وليسَ كلُّ عقلٍ لُبًّا[4].

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 24/ 374.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 89.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 181.
(4) ابن سيده، المحكم، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (لب - لبب).

نكتةُ جمعِ لفظِ ﴿ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾:

جاءَ لفظُ ﴿ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ في قَولِهِ تَعالى: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ مجموعًا، ولم يرد في القرآنِ الكريم إلّا بصيغةِ الجمع، يقول الرّافعيُّ في نُكتة ذلك: "إنّك ترى بعضَ الألفاظ لم تأتِ في القرآن إلّا مجموعةً، ولم يُستعمَلْ منها صيغةُ المفرد، فإذا احتاجَ إلى هذه الصّيغة استعملَ مُرادفَها؛ كلفظة (اللُّبِّ)، فإنّها لم تجئْ فيه مفردةً، بل جاءَ في مكانها (القلب)؛ وذلك لأنّ لفظَ (الباء) شديدٌ مجتمِعٌ، ولا يفضي إلى هذه الشّدَّة إلّا من اللّام الشّديدةِ المُسترخية، فلمّا لم يكن ثَمَّ فصلٌ بينَ الحرفين يتهيّأ معه هذا الانتقالُ على نسبةٍ بين الرّخاوة والشّدَّة تُحَسِّنُ اللّفظةَ مهما كانت حركةُ الإعراب فيها، نصبًا أوْ رفعًا أوْ جرًّا، فأسقطَها من نَظْمِهِ بتّة، على سعةِ ما بينَ أوّلِهِ وآخِرِهِ، ولو حسُنتْ على وجهٍ من تلك الوجوه لجاءَ بها حسنةً رائعةً"[1].

استحسانُ الجمعِ واستثقالُ المُفرد

بلاغةُ التّعريضِ في الآية:

يَتضمّنُ قَولُهُ تَعالى: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ فنًّا بديعًا وهو (التّعريض)، وهو كونُ معنى الكلامِ مفهومًا من عُرضِهِ؛ أي: جانبِهِ[2]. ففي هذه الآية نُسِبَ التَّذَكُّرُ إلى أولي الألباب والعقول، وفيه تعريضٌ بأنّ الّذين لم يتذكّروا بالقرآنِ ليسوا من أهل العقول أصلًا[3].

الّذين لم يتذكّروا بالقرآنِ ليسوا من أهلِ العقول أصلًا

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الألباب والعقول:

بين (العقل واللّبّ) عمومٌ وخصوصٌ مطلقٌ؛ فكلّ لبٍّ عقلٌ، وليس كلُّ عقل لبًّا. وعند تأمّلِ استعمالِ لفظَيِ (الألباب) و(العقول) يتبيّنُ لنا من معنى (اللّبّ) أنّه يفيدُ ما كان من خالصِ صفاتِ الموصوف،

كلُّ لبٍّ عقلٌ وليس كلُّ عقلٍ لبًّا

(1) الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النّبوية، ص: 160.
(2) العلويّ، الطّراز: 1/ 195.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 253.

وهو العقلُ الخالصُ منَ الشّوائب، وسمّي بذلك لكونِهِ خالصَ ما في الإنسانِ مِن معانيه، واللّبُّ: هو الخالصُ من كلِّ شيء، وهو أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على لُزومٍ وثباتٍ، وعلى خُلوصٍ وجَوْدة[1]، فلُبُّ كلّ شيءٍ ولُبابُه: خالِصُه وخيارُه[2].

أمّا (العقل) فهو الحابسُ عن ذميم القولِ والفعل، وهو أصلٌ واحدٌ مُنْقاسٌ مُطّردٌ، يدلُّ مُعظمُهُ على حُبْسةٍ في الشّيء[3]. ويُفْهمُ من هذا التّأصيل اللّغويِّ أنّه قد روعي في تسميتِهِ عقلًا كونُهُ يحصِرُ معلوماتِ الموصوفِ به، كما روعي في تسميتِهِ لبًّا كونُهُ من خالصِ صفاتِ الموصوفِ به[4]. فهو مفارقٌ للُبِّ من هذا الوجهِ.

وبذلك يتّضحُ أنّ البيانَ الإلهيّ استعملَ كلمةَ ﴿ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ في تذييلِ الآية الكريمة بدلَ (العقول)؛ لأنّها أليقُ بالتَّذكّر، فكلُّ عقلٍ يتدبّرُ كتابَ الله، ولكنْ ليسَ كلُّ عقلٍ يتذكّرُ بمواعظِهِ، إلّا إذا كان صاحبُهُ ذا لُبٍّ صافٍ، خالٍ من شوائبِ الكِبْرِ والعِناد.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لب).
(2) ابن سيده، المحكم، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (لب - لبب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عقل).
(4) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 84.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والأربعون،
سورة الصّافّات من الآية 145 إلى سورة الزُّمر الآية 04
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والأربعون، سورة الصّافّات من الآية 145 إلى سورة الزُّمر الآية 04
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 49 ، 812 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-641-51-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 49 : المجلد التاسع والأربعون، سورة الصّافّات من الآية 145 إلى سورة الزُّمر الآية 04.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-641-51-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1524626 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»